الدكتور أدورد سعيد ، "الاستشراق"

(نيويورك : بانتيون ، 1978) ، 368 صفحة

Edward W. Said "ORIENTALISME"

(New York : Pantheon Books, 1978)

بقلم : الدكتور خليل سمعان

« حدث العام الادبي . فتح في عالم النقد الرصين والمنهج العلمي الصحيح . كتاب وجبت قراءته على كل طالب وباحثة واستاذ متخصص وامريكي مثقف .

هذا بعض ما نقرأ ونسمع عن كتاب الزميل الدكتور ادورد سعيد ، استاذ الادب المقارن في جامعة كولومبيا في الاستشراق والمستشرقين ومدارسهم ودراساتهم ، الغث منها والسمين .

وهو يحتوي على مقدمة وثلاثة ابواب :

فالمقدمة هي في الواقع عرض منهجي مفصل ، اراد المؤلف ان يكون للقارىء تعريفا جغرافيا وحضاريا لموضوع الاستشراق ، ميز فيه بين وجهتي نظر غربيتين ، اولاهما تعود الى الفكر والعمل الاوروبي ، والثانية الى الفكر والعمل الامريكي في حقل الدراسات المشرقية . فبينما ينظر الفرنسي الى الشرق بوصفه المنطقة الجغرافية التي وصفها « شاتوبريان » « وفرنال » في رواياتهما ، نجد ان الامريكي انما ينظر الى ذات المنطقة ولكن بوصفها المنطقة الجغرافية الواقعة شرقي شبه القارة الهندية .

اما مؤلف الكتاب فانه يعرف موضوع كتابه بانه الحلقة الاكاديمية ، التي تدرس فيها مواضيع شرقية ، يعمل ضمن نطاق تخصصها باحثة وكتاب متخصصون يعتبرون الشرق موضوع تخصصهم الجامعي . ويتابع المؤلف فيؤكد بأن الشرق هو في الحقيقة عالم يتألف من « حضارات وامم تقطن المناطق الشرقية (من الكرة الارضية) لهم من طرق المعيشة والعادات والتاريخ واقع هو اعظم بكثير من كل ما يمكن ان يوصفوا به في الغرب (ص 5) » ثم يشير الكاتب الى ان الحضارة والتاريخ لا يمكن ان يفهما او يدرسا علميا دون الرجوع الى القوى الكامنة فيهما والتعرف على حدود هذه القوى . فالعلاقة القائمة بين الغرب والشرق ، كانت ولا تزال علاقات قوى ، اي علاقة تحكم الغرب بالشرق واستعماره ، على مستوى درجات مختلفة ، وصفها بكل دقة الكاتب ك . م . بانيكار في كتابه :

K.M. Panikkar : Asia and Western Dominance. London : George Allen and Unwin, 1959.

هذا ولقد استشرق الشرق لا لكونه اكتشف «شرقيا» من جميع النواحي الممكن اعتبارها كصورة طبيعية صحيحة له . لقد اكتشف الشرق من قبل الانسان الاوروبي في القرن التاسع عشر ، واستشرق لانه

كان من الممكن تعريضه للكينونة وللتصنيع كعالم شرقي . مثل هذا يستنتج من وصف الفرنسي « فلوبير » للسيدة « كوشوك هانم » ، الغانية المصرية التي لم تتكلم قط ولم تعبر عن عواطفها ، أو وجودها، او تاريخها ، بل تكلم عنها ومثلها « فلوبير » نفسه. و «فلوبير» هذا كان اجنبيا ، غنيا بدرجة نسبية، وذكرا. وهذه المواصفات بالذات هي التي تشكل الواقع التاريخي الذي مكن « فلوبير » من امتلاك « كوشوك هانم » امتلاكا جسديا ، والتحدث باسمها وشرح شرقيتها — (ص 6) .

ويتابع الدكتور سعيد قائلا : انه لا يجب مطلقا الفرض بان هيكل الدراسات المشرقية هو مجرد اكاذيب واوهام يمكن أن تدحض وينعدم وجودها بمجرد بيان الحقائق عنها . فالمؤلف يعتقد ان الدراسات المشرقية لها اهمية كبرى كدليل للسيطرة الاوروبية — الاطلنطية على الشرق ، اهمية هي اكبر بكثير من اهميتها كحقل دراسي اكاديمي . ان ما يجب ان يعرفه الدارس ويتفهمه تفهما صحيحا هو تفاعل الدراسات المشرقية في المجتمع الغربي وعلاقتها الوثيقة جدا بمؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وايضا قوة وجودها المرهبة . فمن تحصيل الحاصل ان اية مجموعة من الأفكار التي يمكنها أن تحافظ على وجودها دون تغيير ، لكونها غير قابلة للتطور والتحور كمجموعة احكام ومبادىء قابلة للتدريس في المعاهد والمناقشة في المؤتمرات العالمية ، وفي الكتب المستعملة في تهيئة الدبلوماسيين والسياسيين ، اي عمل فكري كهذا يبقى دون تغيير منذ عهد الفرنسي « رينان » (حوالي1840م) الى يومنا هذا ، ، وفي بلاد كالولايات المتحدة الامريكية ، هو في الواقع عمل مخيف رهيب ، وارهب بكثير من مجموعة اكاذيب وخرافات تستخدم كاداة تثقيف وتاهيل موظفين . وعليه فان الاستشراق ليس مجرد وهم أوروبي عن الشرق . انه مجموعة نظريات واساليب ومبادىء وضعت منذ اجيال كثيرة سلفت . لقد كلفت الكثير من المال ووظفت ثروات كبيرة في استثمار الاستشراق لهدف استعمار الشرق .

هذا هو اذن هيكل الاستشراق او دراسات الشرق او المشرق الذي يعالجه المؤلف شارحا نتائجه ومساوىء استعماله الاكاديمي في الغرب . وكما سبق وذكرت ، يستعمل الكاتب في بحثه وتحليله نظريات نقدية حديثة ، ومنهجا اجتماعيا — اقتصاديا — سياسيا — ادبيا — تاريخيا، معتمدا كثيرا على نظريات فرامسكي وسواه من بناة صرح النقد الحديث . ويختتم الكاتب مقدمته بتحديد موضوع بحثه تحديدا منطقيا لا يقبل الكثير من الجدل .

هذا الكتاب القيم حافل بوقائع تاريخية وادبية حللها المؤلف ، مظهرا تزمت الغرب ومستشرقيه، فالقى على اعمالهم اضواء تنير السبيل امام الدارس ،وتمكنه من تمييز الرخيص من اعمال الدعاية ، والظالم من ترهات اعداء الحضارات غير الاوروبية ، كما تمكنه من التعرف باساليب الاستشراق ومنطلقاتها . والحق يقال ان عرضا نقديا لكل ما جاء في هذا الكتاب القيم من تحليل ونظريات واستنتاج لا يتسع له هذا المقام ، وانه لا مناص للمثقف العربي من اقتناء هذا الكتاب ودراسته بكل تؤدة وتان . وقبل ان ابدأ بعرض موجز لخلفية هذا العمل النقدي العلمي اود ان اشير الى محاولتين اعتبرهما صرختين في واد ، اولاهما مقال قصير جدا نشر في مجلة « الآداب » البيروتية ، السنة 22 ، العدد 6 ، حزيران 1974 ، بقلم الدكتور ابراهيم ابو لغد ، شكا فيه الكاتب من سيطرة الصهاينة الامريكيين على الدراسات العربية (ص 5—6) والاخرى بحث قيم قدمه الدكتور هارتموت فاهندريخ في مؤتمر الدراسات العربية في غوتنغن ، المانيا الغربية ونشر في سلسلة دراسات المجمع العلمي في غوتنغن ،

Akten des VII kongresses für arabistik und islamwissenschaft,
Herausgegeben von Albert Dietrich.
ABHANDLUNGEN DER AKADEMIE DER WISSENSCHAFTEN IN GOTTINGEN.
Göttingen. Vandenhoeck & Ruprecht. 1976 —
Hartmut Fahndrich, « Historical perspective in Nöldeke's Orientalische Skizzen (1892), pp. 146-154

اشار فيه الى تزمت شيخ المستشرقين الالمان في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين «تيودور نولدكه». وانما اشير الى هذين العملين الادبيين لا لكونهما مرجعين او مصدرين من مراجع البحث،ولكن لما يقتضيه البحث العلمي من امانة تحقيق .

اما كتاب الدكتور ادورد سعيد فيمكن القول ، وبكل اختصار، بانه عمل علمي يعرض آراء الاستشراق في الشرق محللا ، وينقدها ناقدا ، ويستنتج منها خطأ تقسيم المجتمع الانساني وعاداته وتقاليده الى قسمين : غربي وشرقي ، مشيرا الى ان هذا التقسيم

هو من انتاج الفكر الغربي وتخطيطه للحط من قيم الانسان الشرقي وفلسفة وجوده ، وذلك كمقدمة لاستعمار الشرق من قبل الغرب الطموح الطماع . فالغرب يتحدث منذ قرون عديدة عن الصوفية الشرقية، والثراء الشرقي ،ودروشة الشرق ،وعقلية الشرق، وانغماس الشرق في ملذاته المادية ، وما الى ذلك من ترهات كان لها الاثر الحاسم في تصور الغرب للشرق بانه منطقة غريبة ساحرة ، غير متمدنة ، ولكن غنية، لا بأس من الاستيلاء على ثرواتها « وتمدينها » فتصبح صورة مقززة عن الغرب « المتمدن » . وطبيعي أن يكون للتزمت الديني الغربي اثر فعال في وضع الدين الاسلامي في وسط الدائرة ، وجعله موضوع تحليل ونقد عنيفين ، مما ادى الى الاستنتاج الخاطىء بان الدين الاسلامي مسؤول عن العقلية الشرقية ، والدروشة الشرقية الاستسلامية الخ . وسبب هذا التشويش الفكري هو ان الدين الاسلامي والحضارة العربية شكلا في القرون الوسطى خطرا كبيرا على دين الغرب وحضارته . هذا الدين الحنيف لم يخضع في يوم من الايام لسيطرة الغرب وعنصريته ، ولذلك ، أصبح في نظر المستشرقين مصدر قوة الحضارة العربية ـ الشرقية وملهمها . من هذا المنطلق بدأ الغرب يدرس « الاسلام » دراسته التحليلية المعروفة بخصبها وسوء منهجها . ومن هنا استنتج الاستشراق ان طريق التعرف بشعوب الشرق لا تتم الا عن طريق التعرف « بالاسلام » . وكذلك السيطرة على الشرق : فقد قرر المستشرقون انها هي أيضا لا يمكن أن تتم دون «الاستيلاء» على «الاسلام» .

ويفند الكاتب موقف الغرب المسيحي من الاسلام ونبيه تفنيداً يظهر بوضوح جهل الاستشراق وظلمه وعجرفته . هذا الجهل هو الذي ادى بالاستشراق الى الاعتقاد بان على كاهله تقع مهمة « تمدين» الاسلام والشرق المسلم . ويقول الكاتب ان كارل ماركس نفسه لم يكن معصوما عن الوقوع في خطأ نظريات الاستشراق هذه . كما يشير الكاتب الى ان الاستشراق ، وهو غير قابل للتطور والتحرر من تزمته وعنصريته ، ما زال حتى في ايامنا هذه مصدرا للمعلومات الخاطئة عن الشرق والشرقيين . فهو يشير الى تقرير كتبه عام 1967 الدكتور « مرو برجر » ، استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة برنستون الامريكية، ورئيس جمعية الدراسات الشرقية وشمال افريقية في أمريكا وكندا ، يقول فيه بان منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا ليست المنطقة التي تشكل مركزا ثقافيا ذا قيمة أو اهمية ، وان ليس هنالك ما يدل على انها سوف تشكل مركزا ثقافيا في المستقبل القريب ولذا فان دراسة لغات هذه المنطقة لا يمكن ان تجدي نفعا على دارسيها بالنسبة للحضارة الانسانية الحديثة ... وتابع الدكتور « مرو برجر » يقول بان منطقة الشرق الاوسط « لا تشكل مركز قوة سياسية ، وان ليس هنالك ما يشير الى أنها ستصبح قوة سياسية ذات اهمية » (كذا) ـ هذه المعلومات الخاطئة عن الشرق والشرقيين لها اثرها في جميع مرافق الفكر الغربي . انها تنطلق من كتب التاريخ التي تدرس في ثانويات امريكا حيث يتعلم الطالب ان الاسلام « اسسه تاجر عربي غني اسمه محمد قال بانه نبي فتبعه قوم من العرب وغير العرب كان يقول لهم انهم انتخبوا من قبل السماء لحكم العالم » (كذا) ... واذا ، فان الاستشراق ومهمته التعليمية يحملان قسطا كبيراً من مسؤولية تخدير الخلق الغربي فلا يتأثر بتشريد شعب فلسطين ، ولا بمظالم شاه ايران لشعب ايران بل ينظر الى هذه المآسي وكأنها نتيجة طبيعية لعملية «تصنيع وتمدين» الشرق والشرقيين .

على ان الكاتب لا يحكم على جميع المستشرقين بالظلم والجهل ، هنالك من المستشرقين من حصل على معرفة صحيحة بالشرق فوصفه وصفا موضوعيا لا بأس به بل هنالك من المستشرقين من ادى خدمات معترفا بها للعلم والمعرفة .

ويستخلص المؤلف من بحثه ان الدين الاسلامي المعروف في الغرب بالاسلام هو شيء والدول الشرقية شيء آخر . فكما أنه لا يجوز لنا كبحاثة منصفين القول بان المسيحية مسؤولة عن مساوىء حكم الجنرالات الشيليين لا يجوز ان نقول بان الاسلام هو مرآة مساوىء ومصدر مآسي الشرق والشرقيين . فالاسلام ، وهو دين سماوي مقدس وهو مصدر الغذاء الروحي للمسلمين . هؤلاء يعيشون في عالمنا هذا لا في « الاسلام » وعليه فان معرفة الاسلام والمسلمين تفرض على العارف معرفة العالم الذي يعيش ضمن نطاقه المسلم وغير المسلم ، فالمسلمون هم اعضاء في المجتمع الانساني كسواهم من المؤمنين بالاديان الاخرى. انهم أعضاء صالحون منتجون في المجتمع الانساني الذي يشكل الاسلام جزءا منه .

حيا الله الدكتور ادورد سعيد وامثاله من سفراء الحضارة العربية في الغرب .